أثر الرحلة فى نفسى

بقلم المربى الكبير
الاستاذ أحمد بك فهمى العمروسى
ناظر مدرسة المعلمين العليا

ذلك رجل كله صفاء نفس ، وسمو روح ، وثقافة عالية ، وعلم جامع ، وأعنى به الأستاذ الكبير العمروسى بك ، الذى عليه تخرج أكثر أساتذتنا المنتشرين فى المعاهد العلمية ، بل والكثيرون ممن يتولون مناصب القضاء فى مصر .

ما زلت أذكر — والذكرى قطعة من حياة المرء — ذلك المربى العظيم ، وقد مر من ١٢ عاما على مدرستنا للتفتيش — أيام كنت أطلب العلم — وكانت الحصة حصة طبيعة ، وكان أن أخطأ المدرس فقدمنى اليه كأنموذج (للفصل) الذى كنت الأول فيه ، وقد نسى المسكين أنى كنت وعلمه على طرفى نقيض . . . . فسألنى العمروسى بك سؤالا أذكر أنى اندفعت بسرعة فى الرد عليه ، فابتسم وقال : أنت تحسن الالقاء ولكنك لا تحسن علم الطبيعة ، فدع هـذا للخطب والمظاهرات، وأبى أن يتركنى حتى يفهمنى الجواب ، وفى ذلك من العبرة والعظة ما فيه لقوم يتصدرون للتعليم ! المحرر

إن للشرق لمجداً ، وإن للشرق لحضارة ، يا لهما من مجد وحضارة ، ولـكنهما تحت أجنحة التاريخ لم ترتفع عنهما ، وفى طيات الماضى لم تتفتح دونهما . ومن للشرق غير أبناء الشرق ، يبعث تراثه ، ويباهى بفخاره حتى يشع نوره ، ويفيض ينبوعه ، فيكون كما كان فى المـاضى قروناً طويلة ، وحيث لم يك شىء وكان هو كل شىء : مبعث النور والعرفان ، ومنبع الفيض على الانسانية والاحسان . وهل إلى ذلك من سبيل قبل أن يتعرف أبناؤه بعضهم بعضاً تعرف أفراد الأسرة الواحدة ، فيوحدوا الجهود ، ويسيروا معاً إلى الغاية ؟ وهل من وسيلة إلى التعارف بغير السياحة والرحلة ، يكون فيهما اللقاء وبث الشكوى والألم والتشاور فى المنجاة وكيف يكون تحقيق الأمل ؟ إنى لأدين بها كوسيلة تنعدم بدونها الغاية وتقل المعرفة ، وتضيع ثمرة الاشتراك والتعاون، وإنى لمحدثكم :

أتاحت لى الظروف — وكم لها من حسنات — أن أرحل إلى بلاد مراكش (المغرب الأقصى) سنة ١٩٢٢ وأنا إذ ذاك خالى الوفاض من كل معرفة بها ومعلومات عنها ، وكانت هذه أول

رحلة لى إلى غير الأقطار الأوربية ، فتعرفت برجالاتها ، ووقفت بالمعاشرة على عاداتها ، ومدنيتها وأخلاقها ، وأبصرت الأشياء هنالك مرأى العين لا بالقراءة ولا بالسماع ، فبلغ منى العجب والدهشة بمدينة « فاس » العاصمة القديمة لتلك البلاد — ذات التقديس والاجلال من بنيها — مبلغا لم يصله عجب قبله .

رأيت مدينة قائمة فى خور من الأرض على شكل مخروط ، تنخفض قرارته عن أطرافه نحو الخمسين متراً ، وفى تلك القرارة مسجد بانيها مولاى إدريس بن إدريس ، مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب على عهد هارون الرشيد ، وإلى ذلك المسجد تنتهي جميع شوارعها منحدرة من جميع جهاتها ، ولا يكاد أكبر شارع بها يتسع إلا لراكب وراجل . ومع ذلك شهدت فى بيوتها من الفن العربى والحضارة الاسلامية ما جعلني أعود بعقيدة جديدة عن عظمة آبائنا ومجد أسلافنا ، فألقى لذلك ثلاث محاضرات بدار الجمعية الجغرافية الملكية ، نشرت بمجلة الرابطة الشرقية فى العام الماضى ، وأنا مغتبط كل الاغتباط بتلك الرحلة السعيدة التى علمتنى ما لم أكن أعلم ، وما لم يك فى مقدورى بدونها أن أعلم ، وجعلت لى معارف وإخواناً أذكر منهم على سبيل التمثيل أبا مثواى ، السيد الطيب المقرى ، نجل صاحب الدولة الحاج محمد المقرى الصدر الأعظم لتلك البلاد ، وهو الآن حاكم مدينة الدار البيضاء . وإنى لشيق أن أرى من حضراتهم في مصر زائراً أرد فى شخصه بعض ما نالني من حفاوة وإكرام فى تلك البلاد التى أصبحت منذ الرحلة معنياً بأمرها ، شغوفاً بالوقوف على أحوالها ، متمنياً وباحثاً عن خدمة أؤديها لها ، أو لمجدنا العام بالاشتراك مع أهلها .

عزمت وأنا هناك عزمة ، لا رجعة عندى فيها ولا حل لى منها ، أن أواصل رحلاتى إلى الأقطار الشرقية ، فقصدت فى السنة التالية إلى لبنان وجلت فى ربوعه ، فأدركت كم من منافع يجنيها من مصر ، وتجنيها مصر منه ، لو عمل أبناؤها على شد أواصر القربى ، وتنظيم تبادل المنافع ، حتى لكأن الله جلت قدرته أودع فى كلا القطرين ما هو تكملة لأخيه جواً ونتاجاً . ثم يممت دمشق فاذا هى صفحة نضار للدولة الأموية تريد من ينفض عنها غبارها ويجلو صدأها . وفى زيارتى للمسجد الأموى بها تذكرت قول المأمون وقد زاره مع جمع من عظماء مملكته سألهم محاسنه ، فكل ذهب إلى جهة من الحسن لم تصب منه مقنعاً ، فقال هو :

« إن الذى يعجبنى منه أنه بني على غير مثال عرف »

وحقاً لقد بلغ العرب فى فن العمارة والزخرفة هنا وهنا درجة غطت على ما كان لغيرهم ، وقصرت عليهم فناً طبع بطابعهم ، وعرف باسمهم ، أخضعوا فيه الزخرفة لغير التصوير ، فأتوا بالعجب العجاب . وقد ألقيت عن هذين القطرين جملة محاضرات وضحتها بالفانوس السحرى كما فعلت آنفاً عن المغرب .

وكذلك زحلت إلى فلسطين ، فطفت مشهورات نواحيها ، وتأملت محاسن مسجدها مهبط

الوحي في القديم ، ومحل التقديس من جميع الأديان ، وعدت فحاضرت عنها كما حاضرت عن سوريا ولبنان ، وفي نيتي إن شاء الله أن أواصل الرحلة — التي أراها الوسيلة للتعاون ، في الوقت الذي أرى التعاون فيه الأساس الصحيح لبناء رقينا وإقامة صرح عظمتنا — فأزور بغداد عاصمة دولة الرشيد التي بلغ اتساعها على عهده مبلغاً جعله يقول ذات يوم لسحابة أقلعت ولم تمطر بساحته : « أمطري حيث شئت يأتني خراجك » كما يقول الانكليز عن ملكهم الآن « ملك لا تغيب عنه الشمس » ومن بعد بغداد أزور إيران، فالأفغان ،فالهند فالسند ، فما وراء النهر فالتركستان ، حتى أكمل مملكة الرشيد من الشرق ، كما بدأت بأولها من الغرب ، وأنشر عن كل ذلك من المعلومات ما يحفز الهمم ، ويحبب إلى النفوس إحياء الدارس من مجد الأول ، لعلي بذلك أكون قد قضيت لهم حقاً ، وأديت عنا واجبا .

تلك هي الرحلة وهذا رأيي فيها ، وبصفتي من رجال التربية والتعليم أقول : إن العلم الصحيح الحي الطريف ، ليس في الكتب ولا في المذكرات ، وإنما هو في الحياة نفسها وفي التجربة والمعالجة ، فعلم الكتب وحده علم عقيم لا يثقف العقول ، ولا يهذب النفوس ، ولا يعد للمغامرة في الحياة ، وإنما يفيد إذا جاء متمماً لعمل الشخص نفسه للمراجعة والتحقيق، ما مثل من يعتقد أن الكتب هي كل شيء في التعليم ، إلا كمثل من يعتقد أن الماء هو كل شيء في الزراعة ، وماذا يغني الماء إذا هطل على أرض لم يشقها محراث ، ولم تقلبها يد ، ولم تضربها فاس . أقول ذلك عن الكتب ، وأقوله عن تجربة ويقين ، بعد السياحات الطويلة التي قمت بها في السنوات الأخيرة في الشرق ، فاني رأيت فرقا هائلا بين ما علمته عن هذه البلاد بالمشاهدة والملابسة ، وبين ما كان عالقاً بذهني عنها من كتب الجغرافيا والتاريخ .

على أن الرحلة في ذاتها مفخرة من مفاخر الآباء والأجداد ، فكم جابوا من قفار ، وقطعوا من بحار ، وتعرضوا لأخطار ، وتركوا في ذلك من آثار ، في وقت كان السفر فيه قطعة من عذاب ، ليس له من مركب سوى ظهور الأبن وألواح الشراع ، وفي كليهما وما هما فيه من قفر أو بحر ، التعب المضني والخوف المردي والبطء البطيء الذي تقصر فيه الأعمار . وتنتهي دونه الآجال ... أما أنهم — كان الله لهم — لو شاهدوا ما نشاهده الآن من تسخير البخار والماء ، والكهرباء والهواء ، مع ما يحوط ذلك من ترف ونعيم ، ومخاطبة على البعد بالسلك والسديم (اللاسلكي) لقضوا أعمارهم على الأرض مشيا في مناكبها ، وتقطاعاً لنواحيها وجوانبها ، فما بالنا لا نتشبه في ذلك بهم ، ونفعل مثل ما فعلوا في رحلهم وأسفارهم كما يفعل الأفذاذ القليلون منا : أمثال شيخ العروبة ، صاحب السعادة أحمد زكي باشا ، وصاحب العزة محمد بك البتنوني ، وغيرهما ممن نسأل الله أن يبارك لنا في مجهودهم ، ويكثر فينا من أمثالهم إنه سميع مجيب ؟

أحمد فهمي العمروسي